المشهد في القصة القرآنيّة من التردّد إلى تنّوع الدلالّة

قصة يونس عليه السلام نموذجا

The scene in the Qur'anic story from frequency to diversity of significance

The story of Yunus - peace be upon him - as a model

د. مراد معاذ مقري[1]*، د. عبد القادر مربوح[2]

[1] جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)، mouradmekri1987@gmail.com

[2] جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)، aek.mer48@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024-07-15 تاريخ القبول: 2022-11-10 تاريخ النشر:2024-12-19

مُلخّص البحث

تبتغي هذه المداخلة رصد المشهد في القصة القرآنيّة المتردّد بين سور القرآن الكريم في جماليّة أبرزت بلاغة القرآن، التي هي أحد أسرّار مكامن إعجازه، من أنّ التنوع في مشاهد أحداث القصة، هو تنوع يتجلى من ورائه عدّة أهداف، ومقاصد أهمها أنّها خادمة للغرض الديني للسورة أو لكل سورة تردّد فيها مشهد القصة، فتتعدّد المعاني تبعا لاختلاف سياق المقام والكلام، من نفي للباطل والشبهات، وإثبات الحق، وغيرها، فهي عملية تأثير لأجل إقناع الملتقي، سواء كان من الخصوم أو المسلّمين بالقرآن.

لأنّها إحدى الوسائل التي اعتمدها القرآن الكريم في بسط حجاجه بالبرهان والحجة الدامغة، التي لا تترك مفرا أمام المتلقي سوى الإذعان والتسليم لها، لهذا تروم ورقتنا البحثية التريث عند مشهد القصة القرآنيّة الواحدة المتردّدة بين عدد من السور والآيات، فقد كشفت لنا عن كثافة دلاليّة منقطعة النظير في كل ظهور لها، مسخرة جميع الآليات التي نسجت وكونت هذا الخطاب من التركيب اللغوي له، وبنيته اللسانيّة، فأتى البحث متتبعا ذلك في قصة لأحد أنبياء الله ورسله، إنّه نبيّ الله يونس عليه السلام، فقد ذكرت في مواقع عدّة من القرآن، وسميت سورة باسمه، قصة غنية بالحدث، ثرية بالمعاني.

كلمات مفتاحية: القرآن الكريم، القصة، المشهد، التردّد، الدلالة.

---

* **المؤلف المرسل: د/ مراد معاذ مقري/ د. عبد القادر مربوح**

Abstract:

This intervention aims to monitor the scene in the Quranic story that is repeated between the surahs of the Holy Qur'an in an aesthetic that highlighted the eloquence of the Qur'an and one of the secrets of its miracle, that the diversity in the scenes of the events of the story is a diversity that manifests itself behind several goals, the most important of which are that they serve the religious purpose of the Surah or each surah in which the scene of the story is repeated, so there are multiple meanings depending on the different context of the Maqam and speech, from denying falsehood and suspicions, proving the truth, and others, it is a process of influence in order to convince the meeting, whether from opponents or Muslims the Koran.

Because it is one of the means adopted by the Quran in extending its arguments with proof and conclusive argument, which leaves no choice for the recipient but to submit and submit to it. This is why our research time seeks to pause at the scene of a single Qur'anic story repeated between a number of surahs and verses, as it has revealed to us an unparalleled semantic density. In each of its appearances, it harnesses all the mechanisms that wove and formed this discourse, including its linguistic composition and its linguistic structure. The research followed this in a story of one of God's prophets and messengers. He is the Prophet of God, Yunus, peace be upon him. It was mentioned in several places in the Quran, and a surah was named after him. A story rich in events, rich in meaning.

Keywords: The Quran; story; scene; frequency; significance.

1. مقدمة:

يحتل القرآن الكريم المكانة الأعلى والمرتبة الأسنى أمام خطابات البشر كلها لأنّه (يعلو ولا يعلى عليه) يمتلك طاقة إقناعية تذكيها لغته وبلاغته، وأسلوبه في المخاطبة، ومحاججة الخصوم، حيث يشكل الخطاب القصصي بنيّة قارة في تركيبته التعبيرية، ومحورا رئيسا في بنيته الخطابيّة، التي تسعى للتأثير والإقناع، رغم تنوع مخاطبيه، ومحاججة كل نوع بالأسلوب الذي يناسبه عن طريق إقامة الحجة الدامغة أمام الخصوم أو المعارضين، وحتى المؤمنون، وغيرهم من أصناف المتلقين، بين إثباته الحق، ونفيه الشبهات الباطلة، ذلك ما يسعى إليه الخطاب القرآني دائما وفق تقنيات متنوعة، لغوية، بلاغية أو قولية، وغيرها من الوسائل، التي تميزه عن باقي النصوص والخطابات.

كتاب معجز بنظمه، وأساليبه التعبيرية المتنوعة، التي تراعي نوع المتلقي، ومن بلاغته المعجزة وجماليته الباهرة خطاب قصصه الحكيم، الذي تتنوع طرق عرضه بين الظهور مرة، والإخفاء مرة أخرى أو اقتطاع جزء من حدثها الكبير، وتغيّب باقي مشاهدها. إنّها إحدى أبرز السمات البيانية للقصة القرآنيّة ما يصطلح عليها بالتكرار أو تردد حدث ومشهد قصة ما من سور القرآن الكريم تكون خادمة أو منسقة للموضوع السورة التي ترد فيها أو تأتي السورة كلها قصة، هذه من اللطائف الفريدة والنكت الماتعة العجيبة التي لا نجدها إلاّ في النص القرآني.

وعليه نصوغ الإشكالية التالية: ما مدى فاعلية وظيفة التردّد في الخطاب القصصي القرآني للقصة الواحدة في عرض مقاطع أحداث مشاهدها؟ ويلحقها تساؤل هل مصطلح التكرار في القرآن هو التردّد نفسه أم هناك اختلاف بيّنهما؟ لذلك اقتضت المعالجة الاستعانة بالمنهج الوصف التحليلي في بسط الظاهرة وتحليلها، لهذا تأتي مداخلتنا تبحث في مشهد القصة القرآنية، وتردده بين عدد من السور بالوقوف على الدلالات التي يخلفها هذا التردد، في سرد أحداثها، حيث وقع اختيارنا على قصة نبي الله يونس ــعليه السلامــ، التي توجه تركيزنا على المعاني المتعدّدة لكل مقطع منها لأنّها تشكل حججا أقوى وأفحم مردودة على المعارضين في إبطال زعمهم، وطرح شبهتهم، وهذا هو مقصد القرآن في أن يقتنع المتلقي دون شك أو ريبة، فيحصل الامتثال لما يأمره، ويجتنب نواهيه.

2. تصوير المشهد في القصة القرآنيّة:

يتشكل القصص القرآني من عدة مشاهد وصور لأحداث، لها مقاصدها التربوية، والعقدية والأخلاقية، والإقناعية، وغيرها من الأهداف التي ينتهجها القرآن الكريم، «فالقصة القرآنية هي أخبار عن أحوال الأمم الماضية في العصور الغابرة، والأزمنة الماضية، والنبوءآت السابقة، والحوادث الواقعة، فهي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل، والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء والقصة إحدى وسائله لإبلاغ الدعوة»[1] فورود القصة من القرآن هو تحقيق للمقاصد العامة والخاصة التي يدعو إليها الإسلام، فكما نجدها تصور لنا مشاهد وأحداث الأمم والأشخاص في

الأزمنة الغابرة، التي دائما ما يرددها على مسامعنا الخطاب القرآني في كل مرة موضوع جديد، ودلالة جديدة.

والمشهد أو التصوير في القرآن من سمات القصة تتميز ببلاغة التصوير وعرض الأحداث، التي تساق وفق الغرض الديني، حيث يقول صلاح عبد الفتاح الخالدي أن: « قوة العرض والإحياء سمة بارزة من سمات التصوير في القصة، ولون ظاهرة من ألوانه فيها، فما يكاد القارئ يتلو نصوص قصة من القصص القرآنية، حتى ترتسم أمام عينيه مشاهد القصة وحوادثها ومناظرها معروضة عرضا فنيا متناسقا قويا، ويذهب بخياله مع هذه المشاهد مستمتعا متخيلا متأملا متذوقا. أبطال القصة تّدب فيهم الحياة، ويدبّون أمام القارئ ويتحركون، وتظهر علامات الحياة على ملامحهم وحركاتهم وتعابيرهم ونفوسهم، ويتألمون، وينامون ويستيقظون، ويتحدثون ويتجادلون. وكأنهم أمام القارئ على خشبة المسرح»[2]

فكثيرا من نصوص القرآن صورت لنا عدة مشاهد عن أحوال يوم القيامة وأهوالها، وعن الجنة وما تحويه، وحياة الأمم السابقة وما جرى لها من حوادث وكيف اندثرت، كقوله تعالى:﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمَ اَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِے اِلَارْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا اَلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا اَلاَنْهَٰرَ تَجْرِے مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْناً اٰخَرِينَ 7﴾[3] وفي قوله تعالى:﴿اَلْحَآقَّةُ 1 وَمَآ أَدْرِيٰكَ مَا اَلْحَآقَّةُ 2 كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ 3 فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِالطَّاغِيَةِ 4 وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ 5 سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَي اَلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعِيٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ 6﴾[4]

أحداث تتشكل صور مشاهدها في ذهن كل قارئ متمعن للتعبير القرآني، تأسر القلوب، وتأخذ الفكر في تأمل وتخيّل للمشهد، تتوالي المناظر عليه وفق تناسق بديع مهما كان نوع الوصف حال النعيم أو أهوال العذاب، ومظاهر التصوير تتنوع وفق تنوع المشاهد، لهذا اعتبره صاحب كتاب التصوير الفني ألوان متعددة« لون يبدو في قوة العرض والإحياء. ولون يبدو في تخييل العواطف والانفعالات. ولون يبدو في رسم الشخصيات. وليست هذه الألوان منفصلة، ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللونين الآخرين، فيسمى باسمه. أما الحق فإن هذه اللمسات الفنية كلها تبدو في مشاهد القصص جميعا»[5] بذلك يتناول المشهد في القصة القرآنيّة تصوير النماذج البشرية،

والإنسانية لأشخاص معينين أو ذكر عام لها، ويتعرض للجانب الوجداني الذي يقوم على وصف الانفعالات والعواطف التي تحرك النفوس من مكانها، لأنّها نواة الحدث من نسجه إلى تمثيله أمام القارئ.

لأن هذه « العواطف والانفعالات في القصص القرآني_ بفضل طريقة التصوير التي عرضت من خلالها_ بارزة واضحة، وشاخصة منظورة، فعندما تتلو آيات القرآن الكريم التي ترسم مشاهد قصة من القصص بحوادثها وأبطالها وشخوصها، وترى هؤلاء البشر يتحركون حركة متجددة، ويعيشون حياة شاخصة ملموسة_ بفضل قوة العرض والإيحاء_ وترى العواطف مختلفة، عواطف الحب والكره، أو الفرح والألم أو الشكر والبطر، واضحة على ملامحهم. وترى الانفعالات مرسومة مجسمة بارزة على وجوههم، انفعالات الدهشة والمفاجأة، وانفعالات الغضب والرضى»[6]

والأمثلة في هذا البسط كثيرة منها قوله تعالى:﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنَ اَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِے ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِے وَلَا تَحْزَنِےۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ 6 فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ 7 وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّے وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَنْ يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ 8 وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِے بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ 9 وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ10﴾[7] إنّها صورة ومشهد عاطفة الأمومة اتجاه ابنها، فقد تناولت قصة ولادة موسى عليه السلام، مشاهد عديدة عاشها موسى عليه السلام وأمه من حيرة إلى خوف، في غياب الحل عنها ماذا تفعل أمام هذا الأمر الجلل من طاغية ظالم يسعى للطغيان والانفراد بالقوة والسلطان، بيد أن قدرة الله تعالى ومشيئته أكبر وأعلى من مخلوقه الضعيف. وكيف طمأن القرآن فؤاد أم موسى عليه السلام وتولاه برحمته وحفظه من القتل والظلم حتى ألقاه بين يدي عدّوه دون أن يشعر به، مشاهد مفعمة بالعواطف والانفعالات، يتأملها القارئ في صورة محسوسة قد أبدع نسجها صانعها.

كل هذه الأشكال من التصوير في رسم المشاهد، تقربه للوقائع والأحداث تكوّن من آليات القصة في تأدية وظيفتها ضمن الخطاب القرآني، لأن التصوير في القرآن الكريم من أسلوب القصة،

وهو وإن عد من فنيّات الكتابة القصصية العامة إلا أنّها في التعبير القرآني خاصية تتماشى وفق مقاصده الدينيّة.

3. التردد في القصة ودلالته:

3,1. التردد لغة: من رد الراء والدال أصل واحد مطردٌ منَقاسٌ، وهو رجع الشيء[8] ورَجُلٌ مترّدِدٌ: مجتمع قصير ليس بِسَبْطِ الخَلْقِ وفي صفته صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل البائن ولا القصير المتردّد أَي المتناهي في القصر كأَنه تردد بعض خَلْقه على بعض وتداخلت أَجزاؤُه[9] وجاء في البلاغة مصطلح آخر الترديد: هو أن يورد أوصاف الموصوف على ترتيبها في الخلقة الطبيعية، ولا يدخل فيها شيء زائد، كقوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾[10] فقد ذكرت هذه الآية أوصاف خلق الانسان ومراحله، نطفة، ثم علقة، ..

فالترديد هنا لم يأت بمعنى جديد على حسب قول صاحب معترك الأقران، وحجته أن هذه مجرد أوصاف مرتبة ترتيبا منطقيا ليس فيها زيادة[11] ويأتي التردد بمعنى مخالف لما جاء به السيوطي، الذي هو: أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام، ثم يرددها بعينها، ويعلّقها بمعنى أخر. كقوله تعالى:﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّومِنَ حَتَّىٰ نُوتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[12] فاسمها الأول مضاف، والثاني مبتدأ بذلك تغير المعنى. ويزيد ابن الاصبع في أنّه هناك فرقا بين التكرار، والترديد أن اللفظة التي تكرر لا تفيد معنى زائدا،.. واللفظة التي تتردد تفيد معنى غير الأول واشتقاقهما مشعر بذلك، لأن الرّاد من وجه لا يبلغ إلى الموضع الذي أراده، والكارُّ هو الذي انتهى إلى الموضع المراد[13]

وقد ورد مصطلح التردّد في القرآن الكريم في مواضع على أنّه من صفات المتخلفين المنافقين في قوله تعالى:﴿إِنَّمَا يَسْتَْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ٱلْاَخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِے رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ 45﴾[14] فقد كان هذا حال الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر يستأذنون الرسول صلى الله عليه وسلم في التخلف عن الغزو أو الخروج مع النّبي صلى الله عليه وسلّم، فتراهم في شك وحيرة بين الإقبال

أو التخلف كما أجمعت على ذلك معظم التفاسير، وصف لحال المنافقين دائما ما تراهم في تردّد لا يسلكون طريقا واحدا أو معينا، وإنّما يميلون مرة عن الحق، ومرة يوافقونه، فكان هذا فسادا لقلوبهم ورأيّهم. والشفاء من داء التردّد في قوله تعالى:﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَي ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَۖ ﴾[15]

أي: إذا عزمت وصمّمت على الفعل بعد المشورة لأنّ الفاء تدل على أن ما بعدها مفرع على ما قبلها، وهذه طريقة القرآن ترشدنا إلى معالجة التردد، وليس التردد وحده، بل كل ما أنت مقدم عليه في حياتك وإذا جاءك أمر جلل دعاك إلى التردد أو الحيرة التي تقتضي الاستشارة واستطلاع الرأي التي هي سبب الاعتماد والتوكل عليه، فبكسر حاجز التردد يستبان طريق العزم وممّا يحضرنا في هذا المقام قول الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور في شدة عزمه:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزم فإنّ فساد الرأي أن تترددا[16]

فبقدر ما يكون التردّد في حياة الإنسان صفة سلبية، تجعله يعيش الحيرة والشك أو التخلف عن إنجاز نشاطاته، ويكفيه أنّه من صفة المنافقين الذين ذمهم القرآن في غير موضع، وحال تعاملهم مع النّبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان التردّد إحدى المظاهر الأسلوبيّة الباهرة المعجزة لقصصه الحكيم، وهو ما وسم بالتكرار لدى بعض الباحثين. إحدى المميزات البلاغية التي تتمتع بها القصة القرآنية، في أنّها لا تستحضر جسم القصة كاملا، نراها توزعها على عدد من السور، ولا تراع في ذلك ترتيبا من حيث البداية والنهاية، وإنّما نراه تستحضر منها بعض المقاطع، وقد يكون مقطعا وحدا من القصة، ذلك ما يوهم القارئ البسيط أنّه تكرار القصة .

ويعلل أحد الباحثين سر التكرار في سورة الرحمان يقول: « ونحن ممن هدينا إليه في هذه المدارسة أنّ كل آية بأرتة[17] تتردد بعد تقرير موقف أو تقديم فكرة، أو إلقاء موعظة، أو بيان تدبير، أو إخبار عن أمر...تكون مندمجة مع الآية التي قبلها، هنا وإن تكررت لفظا، فإنّها تتخذ في كل تجلية رداء دلاليّا قشيبا لم يكن متصوّرا في بعض سوابقها، ولا متمثلا في لواحقها أيضا، فكأن الآية التي تسبقها تكون "سدة أساسية" وآية البأرتة تكون "مؤولا" لها وقل إن شئت إن الآية السابقة عليها تقرير وإخبار، وآية البأرتة تبكيت وحمل على الاستفسار»[18]

توقف الباحث عند الدلالات التي يخلفها هذا التكرار، الذي حقيقة تسميته تكرار تقتصر على اللفظ فقط، أما ما يعرفه من تعدد المعاني هو تجاوز له، فمهما أعيدت اللفظة أكثر من مرة إلاّ وتحمل معنىً جديدا مثلما هو واضح في مثال آية البأرتة، فقد تنوعت دلالتها، ممّا يجعلنا نستبدل مصطلح التكرار بالتردد، لأنّه « ظاهرة أسلوبيّة تتجاوز أسلوب التكرار؛ يتم استنتاجها بعد التريث، والمدارسة لها طويلا حتى يدلي بأحقية هذا المصطلح، ووظيفته لما يخلقه من دلالات عدّة، وحول التوتر بين ارتفاع وانخفاض على سلم النص أو معماريته، والتكرار هو الرؤية الأوليّة لهذه الكلمات أو الألفاظ التي لا تتعدى إلى ما وراء اللفظة مما يقع في ذهننا أنّها تكرار، وما هو في حقيقة الأمر إلّا الجانب السطحيّ للبناء، وواجهة هذا النسيج الهندسيّ للألفاظ»[19]

هذا على مستوى الكلمة أو اللفظة من النص أو الجملة، فما بال تكرار جملة أو مقطع أو نص على مستوى القصة والسورة القرآنيّة، الأمر الذي ينقلها من دائرة التكرار إلى فضاء التردد، ذلك ما تسخر به القصة القرآنيّة، حيث يقدم صاحب الظلال تعليلا يبيّن وسم ظاهرة تكرار القصص القرآني بالتردد بقوله: « حسب أناس أن هناك تكرار في القصص القرآني لأن القصة الواحدة قد يتكرر غرضها في سور شتى، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة أو حلقة من قصة قد تكررت في سورة واحدة، من ناحية القدر الذي سيق، وطريقة الأداء في السياق. وأنّه حيث ما تكررت حلقة كان هناك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار»[20]

فورود القصة على هذا الشكل وفق تنوع سياق الكلام والموقف، يجعل القصة في القرآن الكريم تطل علينا بدلالات مختلفة متعددة، لأن ما عدّ « تكرارا في المتماثل من الآيات والقصص ليس كذلك بل هي نصوص أخرى اشتركت في المضمون فقط، ولها في وجودها الجديد إضافة، ونقصا وتحويرا حظا من الجدة والجمال والدلالة وليس في ورودها على تلك الهيئات، ما يسمح لنا بنعتها تكرارا محضا بل إنّ لها في أشكالها المستجدة وجودا جديدا يقيمها في مقام التفرد المطلق»[21] هذه إحدى أسرار القصص القرآني، التي يعجز القلم البشري أن ينسج مثلها، أن تطل القصة علينا كل مرة بدلالات جديدة رغم مجيئها في عدة سور، يجعلنا نعدل عن التكرار إلى التردد.

تعرض القصة في مواقع كثيرة من النص القرآني، يتنوع حضورها ويختلف شكلها من مكان إلى أخر، محركها في ذلك السيّاق الذي تعرض فيه، لأنّه هو الذي يضفي على هذا التشابه والتردد دلالات

جديدة تغاير بها بين مقاطع القصة الواحدة، فأحيانا نراها تقتصر على موقف معين، وأحيانا تفصح عن مشهد، لا يهمها الترتيب المنطقي للقصة، وإنّما هدفها خدمة الغرض الديني للسورة.

4. مشهد تردد قصة يونس _عليه السلام_ في القرآن الكريم:

وردت قصة نبّي الله يونس_ عليه السلام_ في مواضع مختلفة من القرآن، وبأشكال متنوعة، بعضها اقتصر على ذكر اسمه فقط، والبعض الآخر تناول مشهدا من أحداثها، حتى السورة التي نزلت باسمه لم تحتف كثيرا بأحداث القصة، وإنّما نراها تتناول مواضيع السور المكية ذات النبرة الشديدة القوية التي يصاحبها الزجر والتقريع والوعيد، وغيرها من مميزات الخطاب المكي لما اختصت به من مضامين هي أس بناء الدين الإسلامي، لهذا أتى ورودها في القرآن الكريم ست مراة، في سورة النساء قوله تعالى:﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾[22] وفي سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ 87 وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ 88﴾[23] حيث اقتصرت هذه السور والآيات إشارة عابرة عن اسم النبي يونس _عليه السلام_ بجانب الأنبياء والرسل.

أما عن حدث القصة فنجده في سورة يونس قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ 98﴾[24] وفي قوله تعالى:﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ 86 فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ 87﴾[25] وأيضا في سورة الصافات قوله تعالى:﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ 139 إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ 140 فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ 141 فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ 142 فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ 143 لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ 144 فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ 145 وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ 146 وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ 147 فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ 148﴾[26]

وأخر سورة قوله تعالى:﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ 48 لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ 49 فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ

مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝50﴾[27] إذا هي أربعة مقاطع تردد فيها الحديث عن قصة يونس عليه السلام دون ذكر الاسم، لأن السور الأولى لم تتكلم عن القصة، بل أتت في معرض ذكر الأنبياء _عليهم السلام_ لهذا لم تتعرض لأحداث القصة ومشاهدها، القصة في سورة يونس _عليه السلام_ نراها تتكلم عن الصراع الدائر بين المشركين ورفضهم للنبي صلى الله وسلم أو معارضة دعوته، بأن تقاذفه المشركون بالادعاء والكذب، والباطل كساحر وكاذب وغيرها من الألفاظ الباطلة.

يقول ابن عاشور عن بعض أغراضها «ابْتُدِئَتْ بِمَقْصِدِ إِثْبَاتِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدَلَالَةِ عَجْزِ الْمُشْرِكِينَ عَنْ مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ، دَلَالَةً نُبِّهَ عَلَيْهَا بِأُسْلُوبٍ تَعْرِيضِيٍّ دَقِيقٍ بُنِي عَلَى الْكِنَايَةِ بِتَهْجِيَةِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي مُفْتَتَحِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَلِذَلِكَ أُتْبِعَتْ تِلْكَ الْحُرُوفُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ [يُونُس: ١] إِشَارَةً إِلَى أَنَّ إِعْجَازَهُ لَهُمْ هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَقَدْ جَاءَ التَّصْرِيحُ بِمَا كُنِيَ عَنْهُ هُنَا فِي قَوْلِهِ: قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ [يُونُس: ٣٨ .وَأُتْبِعَ بِإِثْبَاتِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِبْطَالِ إِحَالَةِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُرْسِلَ اللَّهُ رَسُولًا بَشَرًا. وَانْتُقِلَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى إِثْبَاتِ انْفِرَادِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِلَهِيَّةِ بِدَلَالَةِ أَنَّهُ خَالِقُ الْعَالَمِ وَمُدَبِّرُهُ، فَأَفْضَى ذَلِكَ إِلَى إِبْطَالِ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ شُرَكَاءُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَإِلَى إِبْطَالِ مَعَاذِيرِ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ أَصْنَامَهُمْ شُفَعَاءُ عِنْدَ اللَّهِ، وَأُتْبِعَ ذَلِكَ بِإِثْبَاتِ الْحَشْرِ وَالْجَزَاءِ، فَذَلِكَ إِبْطَالُ أُصُولِ الشِّرْكِ، وَتَخَلَّلَ ذَلِكَ بِذِكْرِ دَلَائِلَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبَيَانِ حِكْمَةِ الْجَزَاءِ، وَصِفَةِ الْجَزَاءِ، وَمَا فِي دَلَائِلِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ حِكَمٍ وَمَنَافِعَ لِلنَّاسِ. وَوَعِيدِ مُنْكِرِي الْبَعْثِ الْمُعْرِضِينَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَبِضِدِّ أُولَئِكَ وُعِدَ الَّذِينَ آمَنُوا. فَكَانَ مُعْظَمُ هَذِهِ السُّورَةِ يَدُورُ حَوْلَ مِحْوَرِ تَقْرِيرِ هَذِهِ الْأُصُولِ... »[28]

يلعب المشهد القصصي في القرآن الكريم دورا كبيرا في الإقناع أثناء عملية الحجاج باعتباره وسيلة من وسائل الحجاج التي لجأ إليها القرآن، يقوم خطابها على الحجة الدامغة المتمثلة في الآيات والبراهين التي تدحض زعم وشبهات خصومه، فلا يجد أمامها إلا التسليم بها أو الإذعان لها إذا تخلص من جحوده، وكفره بالنعم والصور المتجلية أمامه، فكان أن احتوى على العديد من الآليات والتقنيات التي تنسج هذا الخطاب والحجاج، والقصص حافل بها، ويظهر ذلك أنّه يصور لنا أحداث جرت بين

النّبي المرسل من عند الله إلى قومه يدعوهم إلى التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر، ويحذرهم مغبة الوقوع في الشرك بتبيان مصير المشرك هو العذاب الشديد، والغضب من الله.

لهذا يتبوأ التصوير والمشهد في القصص والقرآن الكريم غاية كبرى في الحجاج لما يخلفه من أثر بالغ لدى المتلقي وأنواعه، إذ من بلاغته الإقناعية أنّه لا يتوجه إلى الوجدان أو القلب وحسب، وإنّما يتعدى إلى إعمال المنطق، ومخاطبة العقل، وهذه ميزة النص القرآني، يقول سيد قطب: « ما طريقته فكانت هي الطريقة العامة: طريقة التصوير والتشخيص والتجسيم..كان هذا هو المنطق الوجداني الذي جادل به القرآن وناضل وكسب المعركة في النهاية.. فبلغ الغاية بمادته وطريقته..ثم سلك القرآن غير الصور النفسية والمعنوية وغير القصص الكثيرة، وغير مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب... »[29]

وعليه فقصة نبيّنا يونس _عليه السلام_ قصة يحضر المشهد فيها ذو طابع حجاجي، رغم قلة أحداثها حتى وإن نزلت سورة بأكملها فيه لكنها من حيث حدث جسم القصة نراها لم تتردد كثيرا في القرآن الكريم والقصة في نظرتها العامة « مماثل لحقيقة اللوحة الفنية فليست القصة شخصيات وزمان ومكان وأحداث بل ليست لإحداها من شأن في التَّرتيب السردي لأن عزلها على النحو الذي تسلكه الدراسات السردية الحديثة يبدد طاقتها ويذهب التلاحم الذي يكسب العنصر السردي قيمته الفعلية النابعة من الاندماج الكلي في البناء العام»[30] فقد انتظمت أحداث قصة يونس عليها السلام في أربعة مشاهد سنحاول أن نقف عند كل مشهد وحجاجيته.

5. المشهد الأول: الإيمان بالله يدفع العذاب.

وهو قوله تعالى:﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ اٰمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِے ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝ 98﴾[31] تصور الآية لنا حالة قوم يونس بين إيمانهم بالله نجاتهم من عذابه، يقول صاحب التحرير والتنوير:« الْفَاءُ لِتَفْرِيعِ التَّغْلِيطِ عَلَى امْتِنَاعِ أَهْلِ الْقُرَى مِنَ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمُ الْعَذَابُ عَلَى الْإِخْبَارِ بِأَنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللَّهِ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ فَإِنَّ أَهْلَ الْقُرَى مِنْ جُمْلَةِ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ بِأَنْ لَا يُؤْمِنُوا. وَالْغَرَضُ مَنْ ذِكْرِ أَهْلِ الْقُرَى التَّعْرِيضُ بِالْمَقْصُودِ، وَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ قَرْيَةٍ فَكَانَ ذَلِكَ كَالتَّخَلُّصِ بِالتَّعْرِيضِ إِلَى الْمَخْصُوصِينَ بِهِ، وَلِلْإِفْضَاءِ بِهِ إِلَى ذِكْرِ قَوْمِ يُونُسَ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ قَرْيَةٍ.»[32]

مثل أهل القرى الذين سبق ذكرهم في مواقع عدة من القرآن لم يحصل عندهم الإيمان بالله فكانت النتيجة أنّهم تعرضوا لعذاب الله.

لأن العذاب إذا حلّ لا ينفع الإيمان بالله، وعليه توافر الإيمان يزيل العذاب، وقد بيّنت الآية ذلك بتعبيرها« فوَ(لَوْلَا) حَرْفٌ يَرِدُ لَمَعَانٍ مِنْهَا التَّوْبِيخُ، وَهُوَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي لَازِمِ التَّوْبِيخِ كِنَايَةً عَنِ التَّغْلِيطِ، لِأَنَّ أَهْلَ الْقُرَى قَدِ انْقَضَوْا، وَذَلِكَ أَنَّ أَصْلَ مَعْنَى (لَوْلَا) التَّحْضِيضُ، وَهُوَ طَلَبُ الْفِعْلِ بِحَثٍّ، فَإِذَا دَخَلَتْ عَلَى فِعْلٍ قَدْ فَاتَ وُقُوعُهُ كَانَتْ مُسْتَعْمَلَةً فِي التَّغْلِيطِ وَالتَّنْدِيمِ وَالتَّوْبِيخِ عَلَى تَفْوِيتِهِ، وَيَكُونُ مَا بَعْدَهَا فِي هَذَا الِاسْتِعْمَالِ فِعْلَ مُضِيٍّ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى:وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا [النُّور: ١٦] . وَإِذَا تَوَجَّهَ الْكَلَامُ الَّذِي فِيهِ (لَوْلَا) إِلَى غَيْرِ صَاحِبِ الْفِعْلِ الَّذِي دَخَلَتْ عَلَيْهِ كَانَتْ مُسْتَعْمَلَةً فِي التَّعْجِيبِ مِنْ حَالِ الْمُتَحَدَّثِ عَنْهُ، كَقَوْلِه: لَوْلا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ [النُّور:»[33]

لقد بعث الأنبياء والرسل إلى الأقوام والناس، وأهل القرى يدعونهم إلى توحيد الله بالأدلة والبراهين الساطعة، في سياق حجاجي بينهم وبين أهل القرى من أجل أن يتقنعوا بدعوتهم، وقصة يونس هنا إحدى النماذج من الحجاج بين يونس عليه السلام وأهل القرية التي نزل فيهم، حيث ساق لهم العديد من الآيات البينات حول قدرة الله في الخلق وفي تصريف الكوني، وغيرها من الحجج التي يقرون بها، وخاصة بعد أن شهدوا ما قد يحل بهم من العذاب بعد الإعراض عن دعوة الرسل، فسبق إيمانهم بالله قبل أن يدركهم العذاب. فقد رسما حرفا (الفاء) و(لولا) هذا المشهد الحجاجي فيما أفاداه هاذين الحرفية من الإضفاء الدلالات على هذا النص، من دلالة الامتناع بوقوع التعريض إلى دلالة التوبيخ حدث بعد حصول الفعل من أهل القرى وهو أنّهم لم يحصل لهم الإيمان، فوجب عليهم العذاب، ليأتي بعد ذلك الاستثناء (إلاّ) في أن الإيمان إذا سبق العذاب حصل لهم النجاة مثل قوم يونس عليه السلام، وهذه طريقة التعبير في القرآن الكريم في سرده للمقدمات والنتائج المترتبة عنها.

6. المشهد الثاني: الاستغفار والتوبة بعد الذنب سبيل النجاة.

وهو قوله تعالى:﴿۞وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ 86 فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ 87﴾[34] إن مشهد في غاية الانكسار والرجوع إلى الله بعد الوقوع في الذنب والغفلة عن قدرة الله سبحانه وتعالى في خلقه، حيث يقول صاحب تفسير الظلال:« إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة، فضاق صدرا بالقوم، وألقى عبء الدعوة، وذهب مغاضبا، ضيق الصدر، حرج النفس؛ فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين. ولولا أن تاب إلى ربه! واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه. لما فرج الله عنه هذا الضيق. ولكنها القدرة حفظته ونجته من الغم الذي يعانيه»[35] حقيقة عاشها وشهدها الأنبياء في دعوتهم، وهي أنّهم لاقوا تصديّا وعداوة شديدة من أقوامهم الذين بعثوا فيهم، الأمر يحملهم على أن يضيق بهم الحال، بسبب شدة أقوامهم عن التسليم والقبول رغم ما جاءهم من الآيات البيّنات.

فقد تناولت قصة يونس عليه السلام في هذه الحلقة من سورة الأنبياء مشهد الغضب من قومه لعدم إيمانهم، وغفلته عن مقدرة تضييق الله له، لأنّها مناسبة لسياق موضوع السورة في معالجتها لقضية التوحيد والبعث، ورسالة الأنبياء في تبليغ دين الله سبحانه وتعالى، لهذا ناسبها هذا المقطع السريع من القصة، يتعلق بشخص النّبي يونس عليه السلام الذي أدرك سريعا إلى التوبة في نداء مفعم بالانكسار والتسليم بما وقع فيه من الغم، الذي « يكون من تراكب الحزن والخوف من المكروه والضرر وهو أمر مستور في القلب، فلما كانت محنة يونس على نفسه فقط فقد جاءت لفظة (الغم)، مناسبة لستره في بطن الحوت وتراكب الظلمات التي نادى فيها وانقطاع الحيلة في تلك المحنة، وانقباض قلبه وغيرها من المعاني»[36] وهذه المحنة ليست الوحيدة التي نجاه الله منها، فهناك محنة التهام الحوت له، وهي من الغم، لكن آيات القصة وردة مرة في غم بطن الحوت، وهنا اقتصرت على لفظة الغم.

والدلالة تختلف بينهما وفق التعبير اللغوي لأن «الواجب التفريق بين النجاة من بطن الحوت والنجاة من الغم فكونه، في بطن الحوت وجزء من الغم، وإلا فإن فترة الغم أطول من ذلك، فهي تتضمن خروجه مغاضبا من قومه، وبقاءه في بطن الحوت، وإلقاءه في العراء، وطول مدة الغم يتناسب مع دلالة صيغة نجّى بالتضعيف»[37] فالدلالة الحجاجية للمشهد هنا في لفظة (نجيّناه) و(نُنْجي) التي صنعتها الاستجابة المسرعة من الله لنّبيه والمؤمنين.

7. المشهد الثالث: التسبيح والإنابة تستوجب رحمة الله.

قوله تعالى:﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ 139 إِذْ اَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ 140 فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ 141 فَالْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ 142 فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ 143 لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ 144 ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ 145 وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ 146 وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ اَوْ يَزِيدُونَ 147 فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ 148﴾[38] تختص هذه الحلقة من القصة مشهد التقام الحوت لنّبينا يونس عليه السلام، إنّه مشهد في غاية التصوير، صورة الفلك، ومشهد الحوت،

وقوله: « فالتقمه الحوت وهو مليم فما لبث حتى ألهمه الله التسبيح فأخرجه من بطن الحوت ومنّ عليه بنعمته. وبعبارة أخرى إن الصورة المشهدية لوصف (مليم) مع يونس في التقام الحوت ظاهره العقوبة وباطنه الحفظ، أما الصورة المشهدية لوصف فرعون فظاهره وباطنه العقوبة»[39] ذلك أن مليم وقعت في قول فرعون الذي زعم لنفسه الربوبية فكانت تقصد: وبالا وهلاكا عليه، عكس ما ورد في سياق سورة يونس عليه السلام أتت في سبيل الإنابة أو ملامته لنفسه، والدلالتان بعيدتان كل البعد لا يلتقي مقام كلام فرعون مع نبيّ الله الذي كانت له تشريفا ورضا عن فعله. لأن الفعل الحجاجي للفظة المليم هي هناك ما يلام عليه وهذا ما حدث لفرعون، وتكون في صدد لوم النفس لسبيل التوبة.

لقد توالت صور عديدة في قصة هذه السورة، من مشهد الفرار إلى السفينة الكبيرة إلى مشهد ابتلاع الحوت له ومكوثه في بطنه، ليحصل الفرج بعد أن كان من المسبحين، إنّها تسمى لحظة الخروج

أو الفرج، ثم مشهد ما بعد هذا الخروج تعرضه للمرض، « وَكَانَ يُونُسُ قَدْ خَرَجَ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ سَقِيمًا لِأَنَّ أَمْعَاءَ الْحُوتِ أَضَرَّتْ بِجِلْدِهِ بِحَرَكَتِهَا حَوْلَهُ فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ نزع ثِيَابه عِنْد مَا أُرِيدَ رَمْيُهُ فِي الْبَحْرِ لِيَخِفَّ لِلسِّبَاحَةِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَصَابَ الْحُوتَ بِشِبْهِ الْإِغْمَاءِ فَتَعَطَّلَتْ حَرَكَة هضمه تعطلا مَا فَبَقِيَ كَالْخَدِرِ لِئَلَّا تَضُرَّ أَمْعَاؤُهُ لَحْمَ يُونُسَ. وَأَنْبَتَ اللَّهُ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ لِتُظَلِّلَهُ وَتَسْتُرُهُ. وَالْيَقْطِينُ: الدُّبَّاءُ وَهِيَ كَثِيرَةُ الْوَرَقِ تَتَسَلَّقُ أَغْصَانُهَا فِي الشَّيْءِ الْمُرْتَفِعِ، فَالظَّاهِرُ أَنَّ أَغْصَانَ الْيَقْطِينَةِ تَسَلَّقَتْ عَلَى جَسَدِ يُونُس فكسته وأضلته. وَاخْتِيرَ لَهُ الْيَقْطِينُ لِيُمْكِنَ لَهُ أَنْ يَقْتَاتَ مِنْ غَلَّتِهِ فَيَصْلُحُ جَسَدُهُ لُطْفًا مِنْ رَبِّهِ بِهِ بَعْدَ أَنْ أَجْرَى لَهُ حَادِثًا لِتَأْدِيبِهِ، شَأْنُ الرَّبِّ مَعَ عَبِيدِهِ أَنْ يُعْقِبَ الشِّدَّةَ بِالْيُسْرِ »[40]

لفظة السقم ليونس عليه السلام إنّها في غاية التعبير والبلاغة، لاختصاصها بالإصابة على مستوى الجلد، وهذا يختلف عن المرض لعمومه يشمل البدن والروح والنفس، فكانت الحماية والشفاء بفضل شجرة اليقطين، إنّها رحمة الله ليس بأنبيائه وحسب، وإنّما بعباده جميعا، ونحن في صدد سياق الرحمة لا تفوتنا التفاتة التهام الحوت الذي هو الآخر كان لطفا من ربّه، لأنّه لو شاء لقضمه بأسنانه، فتوالي هذه الصور والمشاهد وفق هذا التناسق العجيب يوقع في النفس الخشية والتسليم لله، ويعرف قدرته التي لا يسعها شيء .

8. المشهد الرابع: الدعوة إلى الصبر حين الدعوة وعدم الاستعجال.

وهو المشهد الأخير من قوله تعالى:﴿۞فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَٰحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۖ 48 لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۖ 49 فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۖ 50﴾[41] ترد هذه الآيات هنا في سياق سبيل تذكير النبيّ صلى الله عليه وسلم بما مرّ به يونس عليه السلام، حيث ذكر ذلك ابن عاشور في تفسيره بكلامه: « تَفْرِيعٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِبْطَالِ مَزَاعِمِ الْمُشْرِكِينَ وَمَطَاعِنِهِمْ فِي الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا تَبِعَهُ مِنْ تَكَفُّلِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَاقِبَةِ النَّصْرِ، وَذَلِكَ أَنَّ شِدَّتَهُ عَلَى نَفْسِ النَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُدْخِلَ عَلَيْهِ يَأْسًا مِنْ حُصُولِ رَغْبَتِهِ وَنَجَاحِ سَعْيِهِ، فَفَرَّعَ عَلَيْهِ تَثْبِيتَهُ وَحَثَّهُ عَلَى الْمُصَابَرَةِ

وَاسْتِمْرَارَهُ عَلَى الْهُدْيِ، وَتَعْرِيفَهُ بِأَنَّ ذَلِكَ التَّثْبِيتَ يَرْفَعُ دَرَجَتَهُ فِي مَقَامِ الرِّسَالَةِ لِيَكُونَ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ، فَذَكَّرَهُ بِمِثَلِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذِ اسْتَعْجَلَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، فَأَدَّبَهُ اللَّهُ ثُمَّ اجْتَبَاهُ وَتَابَ عَلَيْهِ وَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ تَذْكِيرًا مُرَادًا بِهِ التَّحْذِيرُ»[42]

كان هذا مشهد المعركة بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وقومه من المشركين والكفار، لهذا سلك مقطع القصة هنا سبيل تسلية النّبي صلى الله عليه وسلم في دعوته، فبدأ بالصبر لأهميته، ليلتحق بعد ذلك حدث القصة بخطاب ينادي فيه (ولا تكن كصاحب الحوت وهو مكظوم) وهذا يختلف عن الحلقة السابقة في سورة الأنبياء بقوله (وذا النون) فقد أشارت الآية هنا إلى صحبة يونس _عليه السلام_ للحوت، ومرّد هذا الاختلاف سياق الكلام، فالمقام هنا هو نهي عن أن تكون في مثل هذه الحالة من الغم والكرب والضجر، وكل هذا من العجلة، فنهى الله سبحانه وتعالى نبّيه صلى الله عليه وسلم أن يتشبه بهذه الصورة، من الغضب الشديد، فلولا الإحاطة برحمة الله لفعل (تداركه) لم تحصل له النعم وذاق الذم.

وهذا غير وارد، لأن صيغة التعبير في قوله: (فلولا) أفادت « امْتِنَاعًا لِوُجُودٍ، فَلَا يَكُونُ جَوَابُهَا وَاقِعًا فَتَعَيَّنَ اعْتِبَارُ تَقْيِيدِ الْجَوَابِ بِجُمْلَةِ الْحَالِ، أَيِ انْتَفَى ذَمُّهُ عِنْدَ نَبْذِهِ بِالْعَرَاءِ.»[43] إنّها الإحاطة والعناية الربانيّة أن يحل بأنبيائه وعباده المؤمنين من النبذ والعذاب، وهي متمثلة في فعل النجاة.

9. الخاتمة:

قصارى القول؛ كانت هذه التفاتة قصيرة إلى قصة يونس _عليه السلام_ رغم قلة عدد تردّدها في القرآن، وقصر مقاطعها، حاولنا أن نتريث عند بعض معاني هذه المشاهد المترددة بين سور القرآن الكريم، التي تسمح لنا بأن نسجل بعض النتائج المترتبة عن هذه الرحلة الماتعة.

_ أن قصص القرآن الكريم قصص أهدفه متعددة، دينية، وتربوية، ودعوية، تسعى إلى تبليغ الرسالة بأسلوب قصصي يطرق العقل والوجدان معا

_ يعتبر السيّاق في الخطاب القرآني وقصصه الكريم هو المحرك الأساسي والصانع للدلالات، فلا يمكن أن نعزل مقطعا عن سياقه أو دون مراعاة المقام الذي ورد فيهن وذلك ما وجدناه مبتوتا بين مشاهد وصور في القصة المعروضة.

_ من النتائج التي أجلتها قصة يونس هي الدعوة إلى الصبر وعدم العجلة، فالداعية يجب أن يتحلى بصفة الصبر على ما يدعوا إليه لما سيلاقيه من الأذى والتصدي، وغيرها من المعيقات.

_ القصة بمقارنتها مع القصص الأخرى من القرآن نراها قصيرة الذكر، إلا أنّها احتوت على دلالات كثيرة كثيفة رسمت لنا عدة صور في كل حضور لها، الأمر الذي يخرجها من دائرة التكرار إلى فضاء التردد.

_ حفلت القصة بتركيب لغوي بديع يعجز أرباب البيان والبلاغة على النظم مثله في تحقيق تردد القصة الواحدة، فقد كانت اللغة سرّ أسلوب التردد بين مقاطع القصة.

10. مكتبة البحث:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

_ابن أبي الاصبع (ت654 هـ)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق، حفني محمد شرف، القاهرة، 1383هـ _ 1963م.

_أسامة عبد الوهاب حمد الحمياني، ماجد ياسين حميد الدليم، قصة يون عليه السلام في القرآن الكريم، دراسة بيانية في المباني والمعاني، مجلة الجامعة الإسلامية، ملحق العدد 183، ح3.

_حامد كمال عبد الله حسين العربي، معجم أجمل ما كتب شعراء العربية، دار المعالي، عمان، –الأردن، ط1، 1422هـ، 2000م

_حبيب مونسي، المشهد السردي في القرآن الكريم، قراءة في قصة سيدنا يوسف، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية واللسانية، مكتبة الرشاد، سيدي بلعباس، الجزائر، الطبعة الأولى 1430هـ، 2009م.

_سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة 17، 1425هـ_2004م.

سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1972.

السيوطي (ت911هـ)، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط1408،1هـ_ 1998م، مجلد1.

صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الفاروق، عمان، الطبعة الأولى، 1437هـ 2016م.

_عاشور، محمد الطاهر، (ت 1393هـ)، التحرير والتنوير، دار التونسية للنشر دون طبعة، 1984م.

_عبدالملك مرتاض، نظام الخطاب القرآني، تحليل سيميائي لسورة الرحمان، دار هومه، الجزائر، د.ط، 2001.

_ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا (ت 389 هـ)، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام ومحمد هارون، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع د.ط، 1399هـ - 1979م.ج2.

مراد معاذ مقري، هندسة التردد السردي القصصي في القرآن الكريم، قصة آدم عليه السلام_ مقاربة دلالية، استكتاب جماعي الخطاب والدلالة (دراسات تطبيقية على الخطاب القصصي القرآني)، تحرير محمود قدوم، المجلد الثاني، İDEAL Ajans، جامعة بارتن كلية الآداب_ تركيا، 2022.

_ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم (ت711هـ)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، تحقيق عبد الله علي الكبير و آخرون، د.ط، د.ت،. مج 3، ج18.

[1] محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس 1984، د.ط، ص119.

[2] صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الفاروق، عمان، ط 1، 1437هـ_ 2016م، ص227.

[3] سورة الأنعام، الآية 7.

[4] سورة الحاقة، الآية 1، 6.

[5] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة 17، 1425هـ_2004م، ص 190.

[6] صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص229، 230.

[7] سورة القصص، الآيات 6، 10.

[8] ابن فارس (395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تح محمد عبد السلام هارون ج2 ص386.

[9] ابن منظور(ت711هـ)، لسان العرب، مج 3، ج18، ص1622.

[10] سورة غافر، الآية67.

[11] ينظر، السيوطي (ت911هـ)، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت_ لبنان ط1408،1هـ_ 1998م، مج1، ص 302.

[12] سورة الأنعام، الآية 124.

[13] ابن أبي الاصبع (ت654 هـ)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح حفني محمد شرف، القاهرة، 1383هـ _ 1963م، ص252، 253.

[14] سورة التوبة، الآية 45.

[15] سورة آل عمران، الآية 159.

[16] حامد كمال عبد الله حسين العربي، معجم أجمل ما كتب شعراء العربية، دار المعالي، عمان، –الأردن، ط1، 1422هـ، 2000م، ص 110.

[17] البأرتة هو نعت اقترحه الناقد ليطلقه على قوله تعالى: "فبأي آلاء ربكما تكذبان" (سورة الرحمان)، عبدالملك مرتاض، نظام الخطاب القرآني، تحليل سيميائي لسورة الرحمان، دار هومه، الجزائر، د.ط، 2001، ص 18.

[18] المرجع نفسه، ص 18.

[19] مراد معاذ مقري، هندسة التردد السردي القصصي في القرآن الكريم، قصة آدم_ عليه السلام_ مقاربة دلالية، استكتاب جماعي الخطاب والدلالة (دراسات تطبيقية على الخطاب القصصي القرآني)، تحرير محمود قدوم، المجلد الثاني، İDEAL Ajans ، جامعة بارتن كلية الآداب_ تركيا، 2022، ص200.

[20] المرجع نفسه، ج2، ص 39، 40.

[21] المرجع السابق، ص 15.

[22] سورة النساء، الآية 162.

[23] سورة الأنعام، الآيات 87، 88.

[24] سورة يونس، الآية 98.

[25] سورة الأنبياء، الآية 86، 87.

[26] سورة الصافات، الآيات 139، 148.

[27] سورة القلم، الآيات 48، 50.

[28] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص78، 79.

[29] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط 1980،6 ،ص229.

[30] حبيب مونسي، المشهد السردي في القرآن الكريم، قراءة في سورة يوسف، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط01، 1430هـ_ 2009م، ص13.

[31] سورة يونس، الآية 98.

[32] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج11، ص288.

[33] المصدر نفسه، ج11، ص 288.

[34] سورة الأنبياء، الآيات 86، 78.

[35] سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت_ لبنان، الطبعة الأولى، 1972، ج47، ص38.

[36] أسامة عبد الوهاب حمد الحمياني، ماجد ياسين حميد الدليم، قصة يون عليه السلام في القرآن الكريم، دراسة بيانية في المباني والمعاني، مجلة الجامعة الإسلامية، ملحق العدد 183، ح3، ص197، 198.

[37] المرجع نفسه، ص176، 177.

[38] سورة الصافات، الآيات 139، 148.

[39] أسامة عبد الوهاب حمد الحمياني، ماجد ياسين حميد الدليم، قصة يون عليه السلام في القرآن الكريم، ص 219.

[40] ابن عاشور، التحرير والتنوير، التحرير والتنوير، دار التونسية للنشر دون طبعة، 1984م.ج23، ص 177، 178.

[41] سورة القلم، الآيات 48، 50.

[42] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص104.

[43] المصدر نفسه، ج30، ص105.